مجلة الشهاب ● المجلد: 09، العدد: 01 (2023م) ● ص ص 09 - 24
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

سمات تفرّد الخطاب القرآنيّ ودلائل إعجازه

Characteristics of uniqueness in the Quranic discourse and the evidences of its inimitability

د/ حمزة بوخزنة*
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية،
كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)
boukhezna-hamza@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/03 | تاريخ الاستلام: 2023/03/14 | تاريخ النشر: 2023/03/16

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:
تتغايا هذه المقالة الكشف عن السّمات التي تفرد بها الخطاب القرآني عن غيره من نظوم البشر، وهذه السّمات هي بمثابة دلائل إعجازه القائمة فيه، وعلها مدار مسألة التّحدي التي دار حولها كلام كثير عند العلماء في مصنفاتهم. وقد اعتمدنا في عرض مادتها على المنهج الوصفي التحليلي، وقمنا بتقسيمها إلى جملة من المحاور الأساسية ، تضمّن كل محور منها سمة بعينها.

وقد أبرزت جملة النتائج المتوصل إليها أنّ مصدرية القرآن الكريم، هي الأساس في الحكم على إعجازه، وكل السّمات الأخرى ابتداءً من رسم القرآن وقراءته، إلى طريقة نظمه ألفاظا وأساليب، ثم إلى بيان طبيعة خطاباته ومعانيها، كلّها تابعة للسّمة الأولى. فكان لابدّ على كل من يروم التّعامل مع النصوص القرآنية أن يراعي خصوصية كل سمة فيه دون استثناء.

الكلمات المفتاحية:
القرآن؛ الإعجاز؛ الخطاب؛ السّمات؛ الدلائل.

Abstract : This article aims to reveal the features that distinguish the Qur'anic discourse from other human speech, and these features are evidence of its inimitability. It is related to the issue of confrontation, which the scholars spoke about in their books.

In this study, we relied on the analytical descriptive approach, and we divided it into a number of basic axes, each of which included a special feature.

The results reached showed that the source of the Holy Qur'an is the basis for judging its inimitability, and all other Characteristics, starting from writing " Rasm" the Qur'an and reading it, to the way it is Syntax in words and methods, then to explaining the nature of its discourses and their meanings, all of which depend on the first feature. It was necessary for everyone who wants to deal with the Quranic texts to take into account the privacy of every characteristic in it without exception.

Keywords: the Quran; inimitable; discourse; Characteristics; evidences.

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة

يتميز الخطاب القرآني بلغة تتسم بكمالها انطلاقا في توظيفها لأصغر وحدة دلالية في التركيب وهي الحرف إلى جملة النص القرآني باعتباره وحدة بنائية وموضوعية كاملة، فكل جزء من النص القرآني يشدّ بعضه بعضا ويتكامل لتحقيق البيان الإلهي المطلق للمعاني المرادة في أدق لفظ وأرق أسلوب وأسمى معنى. يقول إبراهيم فاضل السامرائي: «إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله».(1) فكان القرآن الكريم بذلك مثال لعربية بلغت منتهى النقاء والصفاء والكمال، ظهرت في نظمه، وخصائصه السياقية، وبدائعه في المقاطع و الفواصل، ومجاري الألفاظ ومواقعها. فكان أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا حينما أشرقت الدعوة يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة.(2)

ولذلك راعى القرآن العرب فوقفوا أمامه حائرين فما استطاعوا أن يظهروا على كمال لغته وما اسطاعوا أن يعارضوه ولو بآية واحدة على الرغم من امتلاكهم لناصية البيان وتوافرهم على آليات الفصاحة، فاضطربوا في أمره ووصفوه بأوصاف كثيرة بالسحر والقول المفترى وقول الكاهن والشاعر وأساطير الأولين... إذ كان التّميز القرآني في الإحكام اللغوي «العامل الوحيد الذي يستطيع أن يقهر شخصية التفرد العربي بمطلقها الذاتي لأن تجربة العرب الوجودية قد اختارت اللغة كمجال لتجسيد ذاتها والتعبير عن تفوقها فلم يكن من الممكن أن يقهر العربي إلا من لسانه وبإبداع يفوق ما أبدع عبر الإنشاء القرآني القاهر للمطلق الذاتي في الإنسان العربي المستعلي عليه حضاريا أُذلت أعناق العرب وهي ما تذل لغير هذا، فلم يجد الخصوم سوى القول بأنه: (سحر يؤثر) ».(3)

وخير دليل على هذا عتبة بن ربيعة، وكان بليغ قومه وسيدهم، لما أتى النبي ﷺ ليساومه في دينه وسمع منه النّبي ما سمع قال: "أفرغت يا أبا الوليد؟ " قال: نعم. قال: " فاستمع مني ". قال: أفعل. قال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت:1-4]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السّجدة منها، فسجد. ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك). فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا

(1) فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ص:10.

(2) محمد محمد داود: كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، ص:21.

(3) أبو القاسم حاج حمد: الإسلامية العالمية الثانية، ج:02، ص:162.

الوليد؟ قال: وراِئي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت نبأ...» (1)

وانطلاقا مما سبق جاءت هذه المقالة هادفة إلى إبراز الخصائص والمميزات الأساسية التي يتفرد بها الخطاب القرآني عن بقية النظوم والتآليف الإنسانية، والتي يظهر من خلالها إعجازه، وقد اعتمدنا في عرض هذه المادة العلمية على المنهج الوصفي التحليلي، وجاء تقسيمها وفق الآتي:

1- مقدمة.

2- الانفراد على مستوى المصدرية.

3- التفرد على مستوى البنية اللغوية المحكمة (النظم).

4- التفرد على مستوى الرسم والقراءات.

5- التفرد على مستوى الخطاب ودرجاته .

6- عالمية الخطاب القرآني والنزعة الإنسانية:

7- خاتمة.

2. التفرد على مستوى المصدرية.

استمدّت اللغة القرآنية كمالها كونها صادرة من مصدر رباني كامل مطلق منزّه عن العيب والنقص، وامتيازها بذلك عن سائر الكلام البشري. فالقرآن الكريم كلام الله قولا وصياغة فلم يعهد به الله ﷻ لأحد بل تكفل هو بذلك، يقول ابن تيمية: «وَاللَّهُ تكَلَّم بِالْقُرآن بحُرُوفه ومعانِيهِ فجَمِيعهُ كَلَامُ اللَّه فلَا يقَال بَعضُه كلَام اللَّه وبَعضُه لَيس بِكلَام اللَّه».(2) لذلك فهو يختلف عن كلام البشر، والتعامل معه يقتضي أن يكون بالمستوى الذي يراعي خصوصيته كنص إلهي مقدس، فليس كل منهج يصلح للغة قد يكون صالح التطبيق على القرآن بحيث تقحم نصوصه في قوالب المتناهي المحدود مما يؤدي إلى تحجيم دلالاتها، وحصرها داخل تلك القوالب التي قد لا تسع حتى للغة العربية عند تطبيقها عليها. وإن حرك هذا الأمر بدافع تحري الموضوعية العلمية في دراسة النصوص والتعامل معها - دون وضع أي فوارق بينها - حفيظة كثير من رواد الحداثة، ممن أرادوا خلع أثواب القداسة عن النّص القرآني، وأنسنته بجعله كغيره من النصوص البشرية الأخرى.إذ ينبغي في نظرهم أن يدرس فحسب في إطار تاريخانيته بمختلف ظروفها وأحوالها التي نزل فيها فمن خلالها تفهم دلالاته ومعانيه.(3)

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج:07، ص:163.

(2) تقي الدين ابن تيمية (ت: 728هـ): مجموع الفتاوى، ج:12، ص:587.

(3) ينظر ما كتبه حول هذه المسألة محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ونصر حامد أبو زيد ومحمد شحرور وعلي حرب وحسن حنفي... ينظر: محمد كمال الدين إمام: المعنى والسياق بين الشافعي والشاطبي رؤية مقاصدية، ص:93

وتميز طبيعة النص القرآني عن غيره يكمن في كونه «كلام الله وقوله فهو الذي تكفّل بصياغته بينما الكتب السّماوية السّابقة هي كلام الله وقول المخلوقات، وبالتالي فصياغتها اللغوية تتناسب مع علم هذه المخلوقات ومع قدرتها على صياغة ما علمته. ولذلك لم يتحدّ الله تعالى البشر بأن يأتوا بنص مثل نصوص الكتب السّماوية السابقة، ولم يبين لنا الله تعالى في كتابه أنّ الكتب السّماوية الأخرى من قوله تعالى. بينما القرآن الكريم هو كلام الله تعالى (شأنه بذلك شأن الكتب السّماوية الأخرى) وهو أيضا قول الله تعالى، فالله تعالى صاغ القرآن الكريم ولذلك يتحدّى الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بنص كالنص القرآني ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: 88]».[1] ولعل هذا الأمر يفسر لنا ما حدث للكتب السّماوية السابقة عبر مر التاريخ من تحريف وتزييف من قبل البشر كون صياغتها ليست إلهية، وما جاء فيها من أحكام وشرائع مرتبط بحدود زمانها ومكانها الذي نزلت فيه دون أن تتعداه إلى غيره، بينما الرسالة القرآنية لا تخضع لتلك القيود فهي صالحة لكل زمان ومكان، ومهيمنة على ما سبقها من الرسالات، وهذا ما يؤكده قوله تعالى في شأنها:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 09].

وهذا دليل على عظمة النص القرآني الذي جمع بين البيان والإعجاز فلم تكن الآية الدالة على صدق الرسول ﷺ منفصلة عن البيان كما كان ذلك في رسالة موسى وعيسى **عليهما السلام**، إذ كانت آية موسى عليه السلام التسع، وإحياء المسيح عليه السلام للموتى شيئا منفصلا تماما عن صلب التوراة والإنجيل. أما القرآن فلمّا كان مصدقا للتوراة والإنجيل ومهيمنا عليهما، وجامعاً لحقائقهما، فقد اجتمع في صلبه البلاغ المبين والإعجاز القائم مدى الدهر، وما ذاك إلا لأنّه كتاب لم ينزّل لهداية العرب خاصة، وإنّما نزل لهداية البشرية كلها في عصر الرسول وبعد عصره وإلى يوم القيامة.[2]

3- التفرد على مستوى البنية اللغوية المحكمة (النظم).

يرى علماء النقد والبلاغة أنّ الكلام البليغ حتى يوصف بالكمال والجمال الأدبي لا بد أن تتوافر فيه ثلاث أركان أساسية، وهي:

(1) مطابقته لمقتضى حال المخاطب به.

(2) التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

(3) خلُوّه من التعقيد اللّفظي، والتعقيد المعنوي.[3]

وبالنظر إلى هذه الشروط في كلام من صياغة البشر نجدها لا تجتمع فيه إلا بنسب متفاوتة بحسب

---

(1) عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى، ص30.

(2) صابر حسن محمد أبو سليمان: مورد الظمآن في علوم القرآن، ص:237.

(3) ينظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص:07 . 16.

المقدرة الفنية على نظم الكلام وسلامة اللغة والعلم بمختلف مقتضيات الخطاب وجزئياته وأحواله، وتوفّر النص على جميع هذه العناصر مجتمعة يظهر جوانب البراعة والتفوق فيه، وارتقاءه إلى سلم الكمال اللغوي الذي جاء القرآن بنموذجه الأمثل المعجز. يقول عبد الرحمن حبنك الميداني: «بمقدار ما يُمْكِنُ أن يجتمع في الكلام من هذه العناصر، متلائمةً غير متنافرة، متوائمة غير متشاكسة، مُتَحابّة غير متباغضة، مطابقةً لمقتضى حال المخاطب، يكون تسامي الكلام في سلّم الكمال الأدبي الرفيع، الّذي يحتلُ قمّته لدى التحليل المجهَرِيّ الدقيق كلام الله المعجز، ثمّ يأتي من دونه كلامُ الناس، مع المسافات الشاسعات بينه وبين قمّة كلام الناس».(1)

ويتعلق كمال البنية اللغوية للنص القرآني بكل وحداتها التركيبية، فالحرف القرآني له وضعه في نفسه ومن المفردة، والمفردة القرآنية لها وضعها في نفسها ومن النظم، والنظم له وضعه في نفسه ومن القرآن كوحدة كاملة. وهذا ما حاول مصطفى صادق الرافعي بيانه في تراتب العلاقة بين مختلف وحدات التركيب القرآني لتحقيق مسألة الإعجاز: «الكلام بالطبع يتركّب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. و قد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بدّ في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعاً... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته إعجازاً أبديّاً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانيّة، وفوق ما يتسبّب إليه الإنسان إذ هو يشبه الخلق الحيّ تمام المشابهة، وما أنزله إلاّ الذي يعلم "السّر" في السّموات والأرض. فأنت الآن تعلم أنّ سرّ الإعجاز هو في النظم، وأنّ لهذا النظم ما بعده؛ وقد علمت أنّ جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجمل».(2)

وتخضع كل هذه العلاقات في البنية القرآنية للإرادة الإلهية المطلقة في توظيف اللغة، ولذلك نرى القرآن الكريم جارياً على نسق واحد لا يعتريه الخلل والنقص على الرغم من تعدد الأساليب وتنوع ضروب القول فيه كالقصة والمثل والجدل والحوار... ينتقل القارئ بينها دون وجود أدنى تفاوت أو ترهل. بل قد ترد هذه الأمور في السورة الواحدة دون أن يحس القارئ بالاضطراب والخلل وبفواصل الانتقال بين أنواع الكلام. وهذا ما لا نجده في أساليب الإنشاء البشري وتعابيرهم التي يعتريها النقص والنسبية في نقل المعاني، ومن هذا المنطلق يسير الإمام الباقلاني ليبرز البون الشاسع بين الأسلوب القرآني المعجز والأسلوب البشري في قوله: « ... وفي ذلك معنى ثالث وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ

(1) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّوجل، ج:01، ص:28.

(2) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:145 . 146.

واحتجاج، وحكم وأحكام، و إعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور».(1)

ثم بيّن شأن النسق القرآني من كل ما سبق: «وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بيناً، ويختلف اختلافا كبيرا، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمن».(2)

4ـ التفرد على مستوى الرسم والقراءات.

الرّسم القرآني هو أحد المظاهر التي تبرز لنا كمال اللغة القرآنية، فله خصائص ومميزات التي يتميز بها عن الرسم القياسي.(3) وذلك أنّ الهيئة المخصوصة التي يكتب بها الحرف أو المفردة القرآنية لها سرها الذي يحتاج إلى التفتيش والبحث، لأن الرسم القرآني يشترك في أداء المعنى، وينطوي على كثير من الأسرار والدلائل التي تنتظر من يسبر أغوارها ليكشف عنها. يقول الزركشي في البرهان: "واعلم أن الخط جرى على وجوه فيها ما زيد عليه على اللفظ ومنها ما نقص ومنها ما كتب على لفظه، وذلك لحكم خفية وأسرار بهية تصدى لها أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء في كتابه "عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل" وبين أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها ".(4) ومن الأمثلة التي تبرز كمال القرآن من ناحية رسمه في أداء المعنى، قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 07].

فقد جاءت "مال هذا"(5) في الرسم القرآني (اللام) مفصولة عن (هذا) في موقف وسياق بيان افتراءات المشركين على النبي ﷺ والقرآن الكريم بأوصاف عديدة، فدلت هذه الكثرة في الأوصاف على

---

(1) محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، ت: السيد أحمد صقر، ص:51 . 55. بتصرف.

(2) المصدر نفسه، ص:55 . 61.

(3) ينظر: أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي: عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل. وينظر: ابن معاذ الجهني الأندلسي: البديع في معرفة ما رسم في المصحف عثمان رضي الله عنه.

(4) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:01، ص:380.

(5) ابن معاذ الجهني: المصدر نفسه، ص:30.

حالة الاضطراب الشديد والتذبذب في أقوالهم، وقد بيّن هذا الانقطاع على مستوى الرسم حالة التقطع والتذبذب في أمرهم من القرآن والرسول ﷺ الذي لم يتركوا شبهة إلا ورموه بها بالسحر والإفك المفترى وقول الكاهن ... إلى حدّ قولهم: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾.

ويصور لنا كذلك هذا الانقطاع حال الاضطراب والحيرة الشديدة التي تصيب المجرمين يوم الحساب عندما تعرض عليهم أعمالهم كلها دون أن يغيب أو ينقص منها مثقال ذرة، في قوله تعالى:﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ **[الكهف: 49].**

كما تعد القراءات القرآنية كذلك من مظاهر كمال القرآن وإعجازه، فأنّى للغة من لغات البشر بأن تستوعب هذا الكم من القراءات في بنية واحدة، فتقرأ بوجوه عدّيدة كلّها يحتملها رسمها دون الوقوع في أدنى تضارب أو تناقض بين دلالاتها ومعانيها. فأنّى ذلك إلا للغة القرآن الكاملة بناءً، والمطلقة معنىً. وللقراءات أثر بارز في اتساع المعنى الذي يبرز الانفتاح الدلالي للقرآن وحيوية معانيه، وقد أشار الرافعي إلى هذا الجانب في معرض حديثه عن سبب اختلاف بعض ألفاظ القرآن في قراءتها وأدائها ، حيث قال: ((وثالثة تلحق بمعاني الإعجاز، هي أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معاني الشريعة، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد، وهذا المعنى مما انفرد به القرآن الكريم ثم هو مما لا يستطيع لغوي أو بياني في تصوير خيال فضلاً عن تقرير شريعة)).[1] ومن الأمثلة التي تبرز الكمال القرآني من جهة قراءاته قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 105] . اختلف القراء في قراءة (درست) فقرأ ابن عامر: "دَرَسَتْ" وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "دَارَسَتْ"، وقرأ عاصم وحمزة ونافع والكسائي"دَرَسْتَ".[2]

أما قراءة "دَرَسَتْ"، أي: دَرسَت هذه الأخبار التي تتلوها علينا. أي مَضَتْ وامَّحَتْ.

وقراءة "دَارَسَتْ"، أي: ذاكرت أهل الكتاب، وعن ابن عباس: قارأت وتعلمت.

وقراءة "دَرَسْتَ"، أي: قرأت أنت وتعلمت. أي: دَرَسْتَ أنت يا محمد كتب الأولين وتعلمت من اليهود والنصارى.[3]

---

(1) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص:36.

(2) ينظر عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، ج:02، ص:510 . 515.

(3) عبد الرحمن بن زنجلة: حجة القراءات، ص:264. وينظر الحسين بن أحمد ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، ص:147. وينظر عبد اللطيف الخطيب: المرجع نفسه، ص: 510 . 515.

تنقل لنا هذه الآية أحد الادعاءات التي توجه بها المشركون إلى الرسالة المحمدية متهمين النبي ﷺ بأنه أتى بالقرآن وتلقاه من غيره. فنلاحظ في القراءات الثلاثة ضرباً من الاتهام، وهو إصرارهم على مسألة ثابتة، لا تحمل جدلا، وهي مسألة أميته التي هم أعرف الناس بها، فما عرف عنه القراءة والكتابة، والسفر خارج محيط بلدته، أو حتى الاتصال بأحد من أهل الكتاب. ففي لفظة واحدة بآداء مختلف نسبيا نجد أنفسنا أمام ثلاثة معانٍ متكاملة. كان قومه يحرصون على اتهامه بها. فهو في قراءة "دَارَسَتْ" يتلقى عن أهل الكتاب ويتلقون عنه، وهو في قراءة "دَرَسَتْ" عاكف على قراءة أخبار السالفين وكتبهم، وهو في قراءة دَرَسْتَ" أتى برسالة عفا عليها الزمن، وهي دعوة مكروهة جديرة بالازدراء. فكل هذه الآفاق كما نلاحظ عبرت عنها لفظة واحدة بإضافة حرف، وتغيير ضبط بعض حروفها.[1] وكل هذه المعاني كما يلاحظ تدور في مجملها حول دلالة واحدة تخدم وحدة القرآن المعرفية فالمفردة على تعدد وجوه آدائها هي ذات مرجعية دلالية ومعرفية واحدة تقف عندها جميع المعاني التي يحملها وجه أداء القراءة.

وبهذا نقف أمام أحد أبرز المزايا والمظاهر الإعجازية التي ينفرد بها النص القرآني عن غيره من النصوص البشرية بمختلف أنواعها وفنونها، وذلك أنّه يشرك الرسم بمختلف قواعده، والقراءة بمختلف وجوه أدائها وأحكامها في نقل المعنى إلى المتلقي بطريقة تنم عن كمال لغته وإعجازها؛ وبربطها بين مختلف وحداتها للتعبير عن المعنى في قالب بنائي محكم مطلق الدلالة.

5. التفرد على مستوى الخطاب ودرجاته .

يتجلى لنا أيضا كمال اللغة القرآنية في شمولية خطابها وعالميته أو ما يسميه بديع الزمان سعيد النورسي «بجامعية القرآن وسعته».[2] فهي شاملة بحيث تخاطب الإنسان كفرد في مختلف مراحل حياته ومستويات مداركه. وعالمية بتوجه الخطاب إلى البشرية كافة على اختلاف ألسنتها وتعدد ثقافاتها. فالخطاب القرآني «يخاطب الكينونة البشرية بجملتها؛ فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة وقلبها الشاعر مرة وحسها المتوقد مرة. ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق؛ ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها... وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق، وبهذا الشمول، وبهذه الدقة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً! ».[3]

---

(1) أحمد بن محمد الخراط: الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، ص:120 . 124.

(2) بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النوري، ص:167.

(3) سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج:03، ص:1788.

أ . مخاطبة الإنسان في مختلف أطواره ومداركه:

- **خطاب العقل والوجدان:**

تخاطب اللغة القرآنية الإنسان في مختلف مستوياته بخطاب واحد فهي تتوجه إلى الكيان الإنساني مخاطبة عقله وعاطفته ووجدانه في آن واحد. إ في «النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به، أما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟».[1]

فالحكماء على ذلك كما يقول عبد الله درّاز يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك، والشعراء يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور في نفسك. والذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره. فلا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصدا واحدا، وكيف تطمع من إنسان من أن يَهَبَ لك هاتين الغايتين على سواء وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء. وأما أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع في يديك هذين الطرفين معا... فذلك ما لا تقف به في كلام بشر ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية، فمن لك إذًا بهذا الكلام الواحد الذي يجيء لا من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟

ذلك الله ربّ العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان...[2]

- **خطاب الإنسان في مختلف مستويات إدراكه :**

تخاطب اللغة القرآنية المحكمة الإنسان في مختلف مراحل عمره ومستوياته العقلية والفكرية، فمعانيها مصاغة بحيث يصلح أن يخاطب بها كل الناس على اختلاف مداركهم وثقافاتهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم. فمن يأخذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم يقرؤها على مسامع جمع من الناس يتفاوتون في المدارك والثقافة، فستجد أنّ الآية تعطي كلا منهم معناها بقدر فهمه، وإنّ كلاً منهم يستفيد منها معنًى وراء الذي انتهى عنده علمه.[3] ففي قوله تعالى:

---

(1) عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص:113 -114.

(2) ينظر المرجع السابق، ص:114 . 116. وينظر محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج:02، ص: 247.

(3) سامي محمد هشام حريز: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقا، ص:68.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: 61]. العامي يفهم منها أنّ كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وأنّه غاير في التعبير تنويعًا للفظ. والمتأمل من علماء العربية يدرك أنّ الشمس تجمع إلى النّور الحرارة لذلك سمّها سراجًا، والقمر لا حرارة مع نوره فسمّاه منيرًا، والباحث المتخصص في الفلك يفهم من الآية إثبات أنّ القمر جرم مظلم، يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبّهها بالسراج بالقياس إليه، والمعاني الثلاثة صحيحة، وكل منها على مستوى فهمه.[1]

وبذلك ينفرد الخطاب القرآني عن غيره في أنه يرضي قارئه وسامعه بما يجد فيه من المعاني الواضحة بقدر فهمه وإدراكه، كما أنه يرقى ويتسع إلى جميع الأذواق بأسلوب وخطاب واحد فكلٌ يكرع من حياضه بقدر كأس الفهم عنده «فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلا غنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظهما كاملا من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب الرجال. فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء والأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم وراء وضع اللغة، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد».[2]

- **خطاب الفطرة ومقتضى الملكات الباطنية:**

يرى علماء البلاغة أنّ من شروط الكلام البليغ أن يكون مراعيا لمقتضى حال المُخاطب مع فصاحته أو ما يعبرون عليه بقولهم: "لكلّ مقام مقال" وقد بيّن هذا الخطيب القزويني في قوله: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب، والمساواة وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام إلى غير ذلك ... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب وهذا أعني تطبيق

(1) نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق، ص:405.

(2) عبد الله درّاز: المرجع نفسه، ص 113. وينظر: مناهل العرفان للزرقاني، ج:02، ص:246.

الكلام على مقتضى الحال».[1]

وهو ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في أنّ مدار النظم أو تآخي معاني النحو فيما بين الكلام يكون على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام، يقول في فصل عن مزايا النظم بحسب الموضع وبحسب المعنى المراد والغرض المقصود: «وإذ قد عرفتَ أن مَدارَ أمرِ النّظم على مَعاني النّحو وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأنها أن تكونَ فيه. فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها ونهايةٌ لا تجدُ لها ازدياداً بعدها، ثم اعلمْ أنْ ليستِ المزيّةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها ومن حيثُ هي على الإطلاق ولكن تُعرضُ بسببِ المعاني والأغراض التي يُوضَعُ لها الكلام ثم بحسبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ واستعمالِ بعضِها معَ بعض».[2]

والمتأمل للخطاب القرآني يلحظ أنه يتجاوز في مخاطبته للإنسان مقتضى الظاهر ولا يقف عند حدوده، بل يتوجه إليه ليخاطب مقتضى ملكاته النفسية الباطنية بله مقتضى الظاهر. فنجده يغوص في أعماق الذات الإنسانية حتى يلامس فطرتها الخامدة، ليوقضها من براثن الزيغ والضلال والانحراف، وليقودها نحو معرفة الحق الذي يريحها ويرضيها ويكسبها الطمأنينة، فالمتدبر للقرآن «يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به، والذي نزل ليقره. يجده في روحه ويجده في نصه. يجده في بساطة ويسر. حقاً مطمئناً فطرياً، يخاطب أعماق الفطرة، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب، وهو (تنزيل من حكيم حميد)... والحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه، وفي طريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق».[3] وهذا ما يفسر رد فعل المشركين عندما أعرضوا عن سماع القرآن لأنه حرك فيهم الفطرة التي تبحث عن الحق في ظل صراعها مع الشهوات وملذات الحياة ومتعها، خاصة وأنّه يخاطبهم باللغة التي هي مدار عملهم ومعرفتهم ومربط عزّهم ومفاخرتهم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: 26].

إن هذا الأمر يفسر لنا تأثير القرآن على غير أهل اللسان العربي عند سماعهم له، لأنّه ينادي الفطرة الإنسانية الصافية التي فُطر الناس عليها دون أن يقف بخطابه عند تحيزات قومية أو حدود جغرافية ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم:30]. ويقف بنا سيد قطب عند هذا المسلك القرآني في مخاطبة الإنسان باللغة الفطرية التي يفهمها كل الناس من أقرب الطرق في قوله: «إنّ طريقة القرآن في مخاطبة

(1) الخطيب القزويني: المصدر نفسه، ص:14

(2) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:87.

(3) تفسير الظلال لسيد قطب، مج:05، ص:3127.

الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره. إنه المصدر الذي صدر منه الكون. فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون. فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال، وأضخم الخلائق. الذّرة يُظن أنها مادة بناء الكون، والخلية يُظن أنها مادة بناء الحياة، والذرة على صغرها معجزة في ذاتها، والخلية على ضآلتها آية في ذاتها. وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النسل، الزرع، والماء، والنار، والموت، أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية، ونشأة حياة نباتية، ومسقط ماء، وموقد نار، ولحظة وفاة؟ من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة. لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة، وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة بذاتها هي أضخم الحقائق الكونية، وعظم الأسرار الربانية؛ فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان؛ وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان».[1]

ونقف كذلك في بنية الخطاب القرآني على ميزة فريدة من مخاطبة مقتضى الملكات النفسية الباطنية، وهي اقتناص المعاني الباطنية، وهي ما تزال في حيز الذهن وبواطن النفس، فالقرآن يعبر بأدق صورة عن خوالج النفس وما يجيش فيها من نوايا وأحاسيس ومشاعر كامنة في باطنها، وإن لم تظهر على أحوالها الظاهرة. وهذا ما لا يقدر عليه إلا الذي أحاط بكل شيء علماً، يقول محمد فتح الله كُولَن: «قد يستطيع شخص التعبير عن الكلام كما تم تخيله، أي إن كانت النية وإرادة التعبير متناغمة مع التعبير فمثل هذا الكلام كلام تام وكامل. فإن كان العكس أي إن لم يستطع التصور احتضان التخيل بشكل كامل والإحاطة به، عُدّ هذا التعبير أقل مرتبة من التعبير السابق. فإن لم تستطع ملكة التعقل التعبير عن المعاني المحملة بها؛ فهذا يعني أنها فقدت بعض أعماق التصور والخيال. وهكذا فالكلام الذي يفقد الشيء الكثير بالنسبة إلى مستوى الخيال الرفيع عند مروره من هذه المراحل والمراتب يعد كلاما ناقصا. أما الكلام الذي يستطيع التعبير عن معاني صاحبه ومفاهيمه ونيته بعمق؛ فهو الكلام الكامل التام. والمثال الرائع الوحيد لمثل هذا الكمال هو القرآن الكريم. لذا يجب البحث عن هذا الكمال في محافظة القرآن على عمق الخيال والتصور عند قيامه بنقل الكلام عن أي كائن. وما من أحد يستطيع الإتيان بهذا بمثل هذا الكمال وبمثل هذه الروعة. أجل فما من أحد - سواء أكان ذلك إنسا أم جنا أم ملكا - يستطيع اصطياد المعاني وهي في مرحلة التخيل والنية، ثم نقلها إلى مرحلة التعبير بمثل هذا الكمال أي أننا لا نستطيع أبدا النجاح في تحقيق هذه المقاييس في الكلام والبيان. إذن فالبيان القرآني الذي حقق هذه المقاييس بدرجة الكمال بيان يعجز عنه الآخرون، أي هو بيان

(1) المصدر السابق، مج:03، ص:1793 . 1794.

معجز وإلهي». [1]

وتبرز هذه الخاصية في البيان القرآني في كثير من مواقف المنافقين ونواياهم المبيتة في أنفسهم ضد الإسلام والمسلمين كما بيّن تعالى في قوله: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:64]. ولعل سورة المنافقين بكاملها شاهدة على ذلك نورد منها الآيات الأولى التي نقف منها على هذه الخاصية القرآنية التي فضحت نوايا المنافقين، وما يضمرون من عداء للإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: 1 – 4]. يقول سيد قطب: «هذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي ﷺ هو رسول الله. وحلفهم كذباً ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم، ويخدعون المسلمين فيهم». [2]

ومن الأمثلة التي تبرز بدقة هذا الجانب في الخطاب القرآني في قصّة موسى عليه السلام، فقد بيّن القرآن وصوّر لنا الحالة النفسية الداخلية التي أصبحت عليها أم موسى عليه السلام بعد فقدها له. فنقلها لنا التعبير القرآني بكلمة (فارغاً) التي تحشد من الدلالات ما يدل على حالة الجزع والقلق المفرط الذي أصبح عليه حال فؤاد الأم الحنون. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: 10]. فمن شدة فرط وجدها عليه كادت تظهر بأنّه ابنها وتكشف أمره، لولا أن ربط الله على قلبها.

6. عالمية الخطاب القرآني والنزعة الإنسانية.

من دلائل كمال لغة القرآن الكريم أنّ رسالتها عالمية تتخطى الحدود الثقافية والجغرافية التي نزلت فيها. فالإسلام دين عالمي لا يعرف الانتماء والتحيز، فكان منهجه من جنس صفته، فقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بألسنة أقوامهم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:04]. فكان الوحي ينزل بلسان القوم ليبلغهم رسولهم دين ربهم بلغتهم.

---

(1) محمد فتحُ الله كُولَن: حول جَاذِبِيَّةِ القُرْآن، ص: 26 . 27.

(2) تفسير الظلال لسيد قطب، مج: 06، ص:3573.

ومعنى هذا أن «شرف تنزُّل الوحي الرباني بالعربية قد نافس العربية فيه سائر اللغات التي نزل بها الوحي على أنبياء الأمم السابقة، ولكن الميزة التي ليست لغير العربية هي عالميتها التي فرضتها عالمية الرسالة، فطبيعة اللغة مستمدة من طبيعة الرسالة، والرسالة المحمدية الرسالة الهداية للبشرية عامة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28]. يقول رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي» وذكر منها «وكان النّبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النّاس عامة»[1]، ولا شك أن اللغة التي تختارها العناية الإلهية للبشرية جمعاء لتكون لغة الاتصال بالله ﷻ ولغة عبادته وذكره ودعائه من بين سائر اللغات لهي الأجدر بأن تكون أكمل اللغات وأجملها».[2]

يقول محمد سعيد رمضان البوطي عن هذا الخاصية القرآنية: «إنّ القرآن كتاب عربي، نزل بلغة العرب، وصيغ بلهجة أواسط القبائل العربية: قريش. وكتاب هذا شأنه، كان ينبغي – لو أنّه ظهر في الأرض ولم ينزل من السّماء – أن يتأثر تأثراً ما، من حيث مبادئه وأفكاره، بنزعة البيئة أو الإقليم أو القوم الذين ظهر بينهم وجاء بلغتهم، كما هو الشّأن لعامّة الكتب والمؤلفات الأخرى. ولكنّك لا تبصر من ورائه إلا السّمة الإنسانية المطلقة، فهو في كل ما يصدر عنه من عقيدة وأخلاق وتشريع وعظات، إنّما يُقدّم من ذلك كلّه ثوباً قد فُصِّل على قدر الحقيقة الإنسانية أينما وجدت وكيفما تنوعت».[3]

ولما كان النص القرآني هو الرسالة الخاتمة للبشرية جمعاء، والحاملة للمنهج المناسب لحلّ كل المشكلات المادية والروحية للإنسان في كل زمان ومكان. اقتضي أن تكون بنيته اللغوية في ماهيتها بنية مجرّدة عن التاريخ بل تحتويه وتتجاوزه، لا بنية زمكانية منسوجة من أحداث التاريخ وجزئياته وقوانينه، فتقيّد بالفهم بها، هذا قد يؤدي إلى تحجيم دلالاتها، ويفضي إلى عرقلة حركة النشاط التفسيري، ويجعله يتراوح مكانه، ويدفعه نحو إعادة تكرار ما قيل، بدل إقامة حركة تفاعلية مستمرة مع بنية الخطاب القرآني، استجابة لدعوته المستمرة في كثير من آياته إلى ضرورة التدبر والتأمل، وإلى إعادة قراءته والتعقل والتّبصر فيه.

7. خاتمة

نصل في ختام هذا المقال الذي تطرقنا فيه إلى جملة السّمات التي تفرد بها الخطاب القرآني، والتي تعدّ من الدلائل على كونه معجزا، ومختلفا عن غيره من نظوم البشر جميعا بمختلف صورها وأشكالها، إلى حوصلة النتائج، المتوصل إليها، وهي كالآتي:

(1) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، كتاب التيمم، ح رقم:335، ج:01، ص: 565.

(2) عبد الرحمن أحمد البوريني: اللغة العربية أصل اللغات كلها، ص:32.

(3) محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، ص: 216.

1- مصدرية القرآن الكريم هي الأساس في الحكم على إعجازه، وكل السّمات الأخرى تابعة لها.، فاللَّهُ هو من تكَلَّم بِالْقُرآن بحُرُوفه ومعانِيهِ، ولذلك فهو يختلف عن كلام البشر، والتعامل معه يقتضي أن يكون بالمستوى الذي يراعي خصوصيته كنص إلهي مقدس.

2- يراعي الخطاب القرآني في نظمه كافة مستويات المدارك العقلية الإنسانية بمختلف أطوارها بأسلوب واحد ، فيجد فيه كل واحد مبتغاه من البيان والحكمة والموعظة الحسنة.

3- الرسم القراءات القرآنية عنصران هامّان في إثبات إعجاز القرآن وحفظه صورة وصوتا، وليس هناك فيما وجد على ظهر البسيطة من كلام البشر من الدّقة في الرسم والإحكام في التلاوة ما وجد في كتاب الله، الذي تكفّل عز وجل بحفظه بنفسه.

4- يتجاوز الخطاب القرآني في البيان مقتضى الظاهر الذي نال حيزا كبيرا في الدراسات البلاغية حتى جعل الأساس في الحكم على جودة الكلام بمراعاته لأحوال المخاطبين، لينزل الخطاب القرآني بما هو أعمق من ذلك من خلال مخاطبته للإنسان في مقتضى ملكاته النفسية الباطنية. فالخطاب القرآني يغوص في أعماق الذات الإنسانية ليكشف عن كل ما يتعلق بخوالجها وبواطنها، بغية الإصلاح من شأنها ، وإبعادها عن كل زيغ وانحراف، وليمنحها الأمن والطمأنينة.

5- إنّ اللغة التي اختارتها العناية الإلهية للبشرية جمعاء لتكون لغة الاتصال بالله عبادة وذكرا ودعاءً ... لهي الأجدر بأن تكون أكمل اللغات وأجملها، وهذا لا يتوفر إلا في اللغة العربية من بين سائر اللغات.

5. قائمة المراجع:

- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي،(1421هـ - 2000م)، **فتح الباري**، دمشق، دار السلام الرياض ودار الفيحاء ، ط:(3).
- ابن خالويه الحسين بن أحمد، (1399هـ - 1979م)، **الحجة في القراءات السبع**، ت: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط:(03).
- ابن معاذ الجهني الأندلسي،(دت)، **البديع في معرفة ما رسم في المصحف عثمان رضي الله عنه**، ت: غانم قدوري الحمد، دار عمار، دط.
- أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي،(1990م)، **عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل**، ت: هند شلبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان، ط:(01).
- أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، (1420هـ - 1999 م)، **تفسير القرآن العظيم**، ت: سامي بن محمد سلامة، الرياض - م ع السعودية، دار طيبة ، ط:(02).
- أبو القاسم حاج حمد، (1416هـ . 1996م)، **الإسلامية العالمية الثانية**، بيروت . لبنان، دار ابن حزم، ط:(02).
- أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، (دت)، **إعجاز القرآن**، ت: السيد أحمد صقر، مصر، دار المعارف ، دط.
- الخراط أحمد بن محمد،(1427هـ . 2006م)، **الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة**، م ع السعودية، مجمع الملك فهد لطباع المصحف الشريف، المدينة المنورة، دط.
- أركون محمد ،(2005م)، **القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، تر: هاشم صالح، بيروت -

لبنان، دار الطليعة، ط:(02).

- بديع الزمان سعيد النورسي،(1410هـ . 1995م)، **المثنوي العربي النوري**، ت: إحسان قاسم الصالح، دار سوزلر، القاهرة . مصر، ط:(01).
- بن زنجلة عبد الرحمن، (1413هـ - 1997م)، **حجة القراءات**، ت: سعيد الأفغاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: (05).
- تقي الدين ابن تيمية، (1426 هـ . 2005م)، **مجموع الفتاوى**، ت: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، ط:(03).
- الحمصي نعيم، (1400هـ-1980م)، **فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق**، بيروت-لبنان، دار الرسالة، ط: (02).
- حبنكة الميداني عبد الرحمن حسن، (1409هـ - 1989م)، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّوجل**، دمشق، دار القلم، ط: (02).
- الزرقاني محمد عبد العظيم، (1415هـ - 1995م)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ت: فواز أحمد زمرلي، بيروت – لبنان، دار الكتاب العربي، ط:01.
- الزركشي بدر الدين، (دت)، **البرهان في علوم القرآن**، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة دار التراث، دط.
- السامرائي فاضل صالح، (1427هـ . 2006م)، **التعبير القرآني**، عمان، دار عمار ط:(04)..
- القزويني الخطيب،(1419هـ 1998م)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ت: الشيخ بهيج غزاوي، بيروت - لبنان، دار إحياء العلوم، دط .
- سامي محمد هشام حريز، (2005)، **نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقا**، عمان، دار الشروق، ط: (01).
- سيّد قطب، (1408هـ - 1988م)، **في ظلال القرآن**، **القاهرة**، دار الشروق، (05).
- سيد قطب، (1423هـ 2002م)، **التصوير الفني في القرآن**، القاهرة، دار الشروق، ، ط:(16).
- صابر حسن محمد أبو سليمان،(1404هـ - 1984م)، **مورد الظمآن في علوم القرآن**، الهند، الدار السلفية، ط:(01).
- عبد الرحمن أحمد البوريني،(1419هـ - 1998م)، **اللغة العربية أصل اللغات كلها**، دار الحسن- عمان، ط:(01).
- عبد القاهر الجرجاني، (2004م)، **دلائل الإعجاز**، ت: محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبه الخانجي، ط:(05).
- عبد اللطيف الخطيب، (1422هـ - 2002م)، **معجم القراءات**، دمشق، دار سعد الدين، ، ط:(01).
- عبد الله دراز،(1405هـ - 1984م)، **النبأ العظيم**، دار القلم- الكويت، ط:(06).
- - عدنان الرفاعي، (2006م)، **المعجزة الكبرى**، دمشق – سوريا، دار الخير،ط:(01).
- محمد سعيد رمضان البوطي،(1420هـ - 1999م)، **من روائع القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، دط.
- محمد فتحُ الله كُولَن،(2004هـ -2005م)، **حول جَاذِبِيَّةِ القُرْآن**، رسالة القرآن: مجلة فصلية، تعنى بمفاهيم القرآن العظيم ومقاصده، العدد 02، السنة 01: شوال– ذو القعدة– ذو الحجة: 1425هـ/ دجنبر- يناير– فبراير.
- محمد كمال الدين إمام، (1428هـ - 2007م)، **المعنى والسياق بين الشافعي والشاطبي رؤية مقاصدية**، مجلة الإحياء: فصلية تعنى بالشأن الشرعي والفكري تصدر عن الربطة المحمدية، المغرب، ع:26.
- محمد محمد داود، (دت)، **كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم**، القاهرة، دار المنار، دط.
- مصطفى صادق الرافعي،(1425هـ - 2005م)، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت، دار الكتاب العربي، دط.